

من المحيط إلى المحيط

هدأ الموج واطمان ، فلا يصافح الشاطئ إلا لمساً ، وخفت صوته وسكن ، فلا يتحدث إلا همساً . . . وهو مع هذا جدير — إذا شاء — أن يزأراً كالأسد ، وأن يندفع كالثور ولكنه أراد ، في ذلك اليوم ، أن يكون — كاسمه — هادئاً ، كأنما علته كآبة لفراق هذه الوفود ، التي نزلت إلى جواره فترة من الزمن ، أو كأنما أطرق إطراق المفكر المهموم ، فهو اليوم واجم ساكن .

وقفنا — قبل الرحيل — نودّع ذلك المحيط « الهادئ » الذي طالما سمعنا بعظمته وضخامته ، فأخذت أعناقنا تشرئب وتستطيل ، كأنما أردنا أن ننظر إلى نهايته ، وأن نستوثق من أن له حقاً ذلك الطول الهائل ، وذلك العرض الواسع الفسيح . ولكن العين البشرية لم تستطع — على حرصها الشديد — أن تظفر منه إلا بنصيب ضئيل ، ولم يكن بد من أن نستعين بقوة الخيال ، لكي ندرك بها ما عجزت عنه قوة الإبصار .

ولم تمض ساعات حتى أخذت وفود الأمم تتأهب للرحيل ، بعضها متجه نحو الغرب ، مخترق هذا المحيط الهادئ الساكن ، الذي لم يزل يحف به الخوف ، وتفشاه أخطار الحرب . ولكن الكثرة العظمى من الوفود قصدت إلى الشرق ، بعضها المسرع العجل ، يركب الهواء . وبعضها المترث المتمهل ، يركب واحداً من تلك القطارات الفخمة التي أعدتها حكومة أمريكا لضيوفها ، وزودتها بوسائل الراحة والتنعم ، التي امتنعت على الأمريكيين أنفسهم ، منذ قامت هذه الحرب الضروس .

وكان هنالك شخص واحد فقط من بين هذه الوفود ، رأى أن يشذ عن هذا الإجماع ، فلم يركب طائرة ولا قطاراً ، بل سوّلت له نفسه أن يسمى من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي ، وأن يخرق الولايات المتحدة على متن سيارة قديمة ، حائلة اللون ، كالحلة الوجه ، طال عهدا بالماء والریت ، وعلتها غبرة الترك



والإهمال ، تصيّدُها — أو تصيدته — في أحد الدكاكين الغربية ، وقد قيل له إنها سيارة عريقة في الحسب والنسب ، تنتمي إلى عنصر في السيارات سليم ، إلى محمد طيب كريم . فصدّق ما قيل له ، لأنه كان من المؤمنين المصدقين . ثم حانت منه نظرة إلى عجلها الذي تسير عليه — إذا سارت — فرآه جافاً أعجف ، قد براه الثرى ، وبرحت به النوى . فالتفت إلى صاحب الدكان مبتسماً متسائلاً . فتفجّح التاجر مليئاً ، ثم أكد له أنه عجل لا بأس به ، وأنه يدور مع السيارة إذا دارت ، ويسير معها إذا سارت ، وأن من أكبر مزايا هذه السيارة أن عجلاتها لا تنفجر إلا في الوقت المناسب ، وفي المكان الملائم ، حيث يستطيع صاحبها بشيء من اللباقة أن يحصل على إطار جديد أو إطارين . ومهما يكن من شيء فإن المحسنين في الولايات المتحدة كثيرون ، وستأخذهم الشفقة من غير شك على هذا المصري الغريب ، الذي نأى من الأوطان في طلب العلا ، وطوحت به الغربة حتى أسلمته إلى هذه الديار البعيدة ؛ وحسبك أن تقول لهم إنك عضو في وفود الأمم المتحدة ، وأنت صاغت الرئيس ترومان ، حتى يفتح أمامك الباب المعلق ، ويحف بك الأكرام والإعظام .

بعد هذا الكلام المليخ ، والبيان المؤثر الفصيح ، لم يبق أمام صاحبنا مجال للتردد والإحجام ، فلم يلبث لحظة ، حتى استخرج من جيبه ثلاثمائة من الدنانير ، وقدها إلى صاحب الدكان عن رضا وارتياح وعقدت الصفقة وقضى الأمر ، ولم يبق مجال للنكوص على الأعقاب . . . عند ذلك قال له التاجر ، وهو يتسم ابتسامة عريضة ، بعد أن أصبحت الدنانير في حرز حريز : « الآن لا بد لك أن تفكر جدياً في الوقود الذي يوصلك إلى الشاطئ الشرقي ؛ فإن أمامك ثلاثة آلاف من الأميال ، ستقطعها إن شاء الله في مدة من الزمن تتراوح بين ستة وعشرة أيام ، وستنام في الطريق في فنادق خاصة أعدت لأمثالك من الغرباء . . . ولكن لا بد لك من الوقود ؛ لأن السيارات لا تمشى من غير وقود . والحكومة كما تعلم لا تعطى البنزين إلا بترخيص وبطاقات . ولا بد لك من أن تجد وسيلة للحصول على هذا كله . ولا أظن أنك واجد مشقة في الحصول عليه . » أأنت كما تزعم عضواً في وفود الأمم المتحدة ، وقد كنت مع الرئيس ترومان في حفلة واحدة ؛ فمن ذا الذي يرد لك طلباً ؟

أنصت صاحبنا إلى هذا الكلام ، وعجبت كيف نسي أمر الوقود ، وكيف

صمت التاجر عن ذلك حتى عقدت الصفقة ! حقا أن التجار لا يختلفون كثيراً
مهما اختلفت ديارهم وأوطانهم . . . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فليبادر بالذهاب
إلى إدارة التموين ، وليلتمس منها ما يلزمه من البترين .

ودخل دار التموين على استحياء . وجعل يتحدث عما جاء من أجله بعبارات
تعتز ألفاظها ، وتختلط أفعالها بأسمائها . ورئيسة الدار تصفى إليه وهي تبتسم .
ثم قالت إنها قد سمعته يخطب في اجتماع كبير في سان فرانسيسكو ، وأنه لا بأس عليه
إن شاء الله ، وسيمنح من الوقود ما يريد بل فوق ما يريد . ثم لم تمض دقائق
معدودة حتى كان بين يديه من البطاقات ما يكفي لأن يعبر به القارة الأمريكية
والمحيط الذي يليها . .



قال التاجر : « ألم أقل لك إن كل باب مغلق سيفتح أمامك ، وسيظهر لك هذا
الإكرام مرة أخرى حين تنفجر إطاراتك ، فتأتيك إطارات من كل صوب ا
والآن لا بد لك من التفكير في الرفيق قبل الطريق . . . أليس من أمثالكم يا بني
مصر : « خذ الرفيق قبل الطريق » ، مع أن بلادكم لا تزيد في المساحة على واحدة
من الولايات المتحدة ، وعددها كما تعلم ثمان وأربعون ؟ إذن لا بد لك من
رفيق ، وإني كما أتخفك بسيارة نادرة ، بثمن بخس ، سأتحفك برفيق عظيم
بثمن بخس أيضاً . . . لا تنس أن أمامك طريقاً طويلاً يبلغ آلاف الأميال ،
ولا أريد أن تضل فتشرق حيث يجب أن تعرب ، أو تصعد حيث يجب أن
تهبط . ناهيك بأن القيادة الطويلة مضية للجسم والعقل ، ولا بد لك من
الاستجمام والراحة من آن لأن لكي تتمتع بمناظر بلادنا العظيمة . والصديق
الذي اخترته لمصاحبتك دمث الأخلاق ، كريم العنصر ، بارع في قيادة السيارة ،
يعرف طرق الولايات المتحدة معرفة الحبير ؛ فطالما ساق السيارات في طول البلاد
وعرضها ، وشمالها وجنوبها . . . وهو فوق ذلك لن يكلفك سوى خمسين
ديناراً ، عدا نفقات السفر التي لا تتجاوز العشرة الدنانير »

ولم تمض دقائق على هذا الكلام الوجيه حتى أقبل الرفيق وتم التعارف بين
الطرفين . وكانت ملاحظه لا تختلف كثيراً عن ملامح السيارة ، ولذلك لم يتردد
صاحبنا في اختياره ، وسلمه المفاتيح ، وتواعدا على اللقاء في الساعة السابعة

من المحيط الى المحيط

من صباح اليوم التالى (اليوم الاول من شهر تموز) لىكى تبدأ تلك الرحلة الطويلة من شاطىء المحيط الهادى ، إلى شاطىء المحيط الأطلسى .
إن القارىء الذى بطالع هذه القصة ، ويتأمل كيف أقبل صديقنا على هذه المحازفة ، وهو لا يعرف من أمر السيارة ولا من أمر الرفق شيئاً ، يحق له أن يتوقع أن أحداً من هؤلاء الثلاثة لن يستطيع الوصول إلى الشاطىء الشرقى ؛ بل لعلهم لن يبتعدوا عن المدينة الغربية بضعة أميال حتى يرتدوا على أعقابهم خاسرين . ومع ذلك فقد شاءت المقادير أن تبدأ الرحلة وأن تتم فى سبعة أيام ، وأن يكون الرفق المجهول رملاً عذب الحديث كريم النفس . وشاءت المقادير أيضاً أن تنفجر الإطارات الأربعة واحداً بعد واحد فى المكان الملائم ، وألا يجد أصحابنا مشقة كبيرة فى الحصول على إطار جديد ، بدلا من الإطارات المنفجرة ، وذلك بفضل ما أبدته إدارة التموين فى مختلف البلدان من الجود والكرم .

وهكذا أتبع لهذا العضو من وفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو أن يخترق الولايات المتحدة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وأن يرقب عن كثب هذا العالم المترامى الأطراف ، المتعدد الصور والألوان ، الذى احتشدت فيه الشعوب وامتزجت فيه الأجناس والملل وتعددت فيه الشكول ، وتنوعت الطبائع والميول ، واجتمع الناس فيه من كل قطر وإقليم ، على اختلاف المذاهب والنزعات ، وتباين الآهواء والعادات ، ومع ذلك قد أمكن هذه الجوع المتباينة أن تؤلف أمة موحدة الأمر إلى مدى بعيد . مجتمعة الرأى فى كل ما يعرض لها من الشؤون الجليلة ، وبين أبنائها من اسباب الوفاق والاتحاد أكثر مما بين أبناء البلاد التى يتفق سكانها فى الأشكال والألوان والجس والدين .

هذا العالم الأمريكى مقسم إلى ثمان وأربعين ولاية ، لكل ولاية عصبية وكبرياء ، ونزعة فى الحياة تميزها عن غيرها من الولايات . ولكل منها استقلال تحرص عليه اشد الحرص ، ولا يجروء أحد أن يتعرض له بسوء وفى هذه الولايات عشرة ملايين من الزوج السود ، وبضعة ملايين من الصفر الآسيويين ، وفيها عشرات الملايين من الأجانب الذين لم يولدوا أو لم يولد آبائهم فى أرض أمريكا ، وفيها من المذاهب والدانات عدد عظيم ؛ بعضه منقول من العالم القديم ، وبعضه

لحريف نبت في التربة الأمريكية ازدهر فيها ورعرع . وصفوة القول إن فيها من وجوه الاختلاف والتباين ، ما يكفي بعضه للتفرقة بين الناس ، وإضعاف الوحدة القومية ، وخلق سلسلة لا تنتهي من المشاكل السياسية والاجتماعية تجعل تماسك الدولة أمراً عسيراً .

ولست أريد أن أزعج أن هذه الاختلافات لم تخلق للأمريكيين طائفة من المشاكل ليس من السهل حلها ، ولكن الذي لا شك فيه أنها لم تؤثر أثراً ذا شأن في قوة تماسك الأمة ولا في كيانها السياسي ، ولم تحل بينها وبين الاضطلاع بأكبر عبء منظم نهضت به دولة في أي عصر من العصور .

وليس بالأمر الهين أن نتبين السبب أو الأسباب التي ترجع إليها قوة الدولة ، على الرغم مما بها من عوامل الاختلاف والتباين . وأكبر الظن أن هذا الاستقرار السياسي والاجتماعي في الشعب الأمريكي يستند إلى دعامتين قويتين : إحداهما مادية ، والأخرى روحية . فالأولى هي اتساع مجال العمل ، ووفرة الأرزاق لمن شاء أن يجتهد في طلبها ، وتعدد المرافق وتنوعها بحيث يستطيع كل إنسان أن يجد مجال الحياة الذي يلائمه . هذه هي الاعتبارات المادية التي يذكرها أكثر الكتاب حين يتحدثون عما يسمونه « سر عظمة أمريكا » . ولكن هنالك أيضاً ناحية روحية لبناء الدولة الأمريكية ، ولعلها ليست أقل خطراً من الناحية المادية . ومن الممكن أن نستخلصها في كلمة واحدة : الحرية ؛ فهي الدعامة الأساسية التي تمسك البناء كله . وهي التي حالت دون الاضطهاد ، وهي التي أفسحت المجال للفرد والجماعات ، وهي التي مكنت هذه العناصر المختلفة أن تعيش في صعيد واحد ، وأن تكون أمة مجتمعة الرأي موحدة الكلمة .

ومن حق القارئ أن يعترض بأن ما لقيه ، أو ما يلقاه الزوج في أمريكا ، ليس مما يتفق مع الحرية . وهذا صحيح . ولكن بفضل الحرية أمكن للزوج أن ينتقلوا من الولايات التي يضطهدون فيها إلى غيرها من الولايات ، وبفضل الحرية أخذت حياة الزوج في التحسن والتقدم حتى ارتقى منهم الكثير في الحياة الاقتصادية والروحية . ولا يزال التحسن في حالة الزوج في اطراد دائم . فإذا كان تقدمهم في المستقبل على نسق تقدمهم في الماضي ، فلا شك أن الفضل في هذا يرجع إلى انتصار عقيدة الحرية على اللون والجنس ، وهما من أقوى العوامل الهدامة في حياة الشعوب .



وبعد آتراني بعدت كثيراً عن موضوع هذا الحديث ، وهو وصف البلاد الأمريكية من غربها إلى شرقها ؟ لست أحسب أنى بعدت عن موضوعى كثيراً . لقد اخترق سائحنا المصرى فى رحلته المذكورة بضع عشرة ولاية ، وفى كل منها مثال حى لتلك الظاهرات التى تتألف منها حياة الشعب الأمريكى . لقد بدأت الرحلة من أقصى الولايات الغربية وهى ولاية كاليفورنيا ، عاصمتها ساكرامنتو ، ومن مدنها سان فرانسيسكو ، ولوس أنجليس ، وسان دييجو وهلم جرا . ولا أريد بتكرار هذه الأسماء أن أدل القارئ على مدن قد يعرفها أو لا يعرفها ، إنما أردت أن ألفت نظره إلى هذه الأسماء الأسبانية الكثيرة المنتشرة فى كاليفورنيا ، وإلى الطابع الأسبانى القوي الذى اصطبغت به البلاد . لقد كان الأسبان أول من نزل بكاليفورنيا ، وأنشأ مدنها ، وأقام الحياة السياسية فيها . ولا شك أن فى السكان عنصراً أسبانياً تقرأه بسهولة فى الملامح والتقاطيع . ولم يحاول الأمريكيون أن يزيلوا هذا الطابع الأسبانى بل استبقوه ولم يغيروا من أسماء المدن أو الأنهار أو القرى .

وفى سان فرانسيسكو عدا الطابع الأسبانى حى صينى صرف ، جميع سكانه من أهل الصين بزيمهم وملاصهم المعروفة ، وعلى أبواب الدكاكين كتابات صينية ، وتسمع فى جوانبه اللغة الصينية ، والاذاعات اللاسلكية باللغة الصينية . والغريب فى هذا أن سكان سان فرانسيسكو يفتخرون بهذا الحى الصينى . ويمدونه من أكبر مزايا مدينتهم ، ويقولون فى زهو إنه يمثل أعظم مدينة صينية خارج بلاد الصين الأصلية . وليس الحى الصينى هناك جزءاً نائباً من المدينة ، بل واقع فى قلبها وفى جزء ممتاز منها . ولهذا الأمر دلالة على روح التسامح التى تسود هذا الإقليم كله .

والآن تنازعنى نفسى لأن أقول إن ولاية كاليفورنيا هى أعظم الولايات المتحدة جميعاً ، وإن كان هناك ولايات تفوقها فى المساحة أو الثروة أو عدد السكان . وذلك لما امتازت به من جمال الموقع وطيب الهواء ، وشموخ الجبال ، وروعة المياه الساقطة ، وضخامة الغابات الباسقة ، وتنوع الإنتاج الزراعى والصناعى . ولها فوق ذلك ساحل تطل جباله على المحيط الهادى . وهى بعد هذا

كله — أو قبل هذا كله — الولاية التي ازدهرت فيها صناعة السنا، فأصبحت — سواء رضينا ذلك أم كرهنا — أكبر مركز للنشر والتلقين والإفهام؛ ولو شاءت لكانت عاصمة العالم في التثقيف والتهديب والإرشاد.

أقول تنازعني النص لأن أقول إن ولاية هذا شأنها جديرة أن تحتل المكان الأول بين الولايات جميعاً. ولكنني أخشى على نفسي — إن أنا قلت ذلك — أن تناصبني العداة سبعٌ وأربعون ولاية متحدة، كل منها ترى أنها ليس في العلم أرض كأرضها ولا سماء كسمائها. والويل لمن قال غير هذا، أو اجترأ أن يسرف في تفضيل إحداها على الأخرى. ذلك أن الأمريكي الصحيح معجب بالولاية التي ينتمى إليها، فخور بها وبكل ما يتصل بها، بل هو أيضاً يرى بلدته أو القرية الضئيلة التي يعيش فيها أعظم بقاع العالم وأطيبها. ولعل هذه المصيبة الإقليمية من أكبر مصادر القوة في الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كنا نمر في طريقنا بقري صغيرة لا تتجاوز بضعة منازل، وليس بها شارع سوى الطريق الرئيسي الذي نحن سائرون فيه. ومع ذلك ترى هذه القرية قد نصبت الأنوار الحمراء والخضراء وسط الطريق لتنظيم حركة مرور يوشك ألا يكون لها وجود. إن هذا الرضا عن الوطن الصغير أمر ترتاح له النفس، وظاهرة من أفضل ما يتمناه المرء في كل قطر من الأقطار.

* * *

بعد أن خرج سائحنا من ولاية كاليفورنيا، دخل في ولاية أريزونا؛ وعلى الحدود بين الولايتين باب عظيم مكتوب عليه بحروف ضخمة: مرحباً بكم في أريزونا. وفيما عدا هذا ليس هنالك ما يدل على أنك خرجت من ولاية ودخلت في أخرى. وأول شيء تلقاه حين تدخل أريزونا من الغرب صحراء فسيحة، قد انتشر فيها العوسج والصبارة، والأشجار الشوكية الطويلة التي تنسب إلى يوشع. هذه النباتات الحشنة مبعثرة في كل مكان لا يكاد جزء من الصحراء مخلو منها. والماء فيها قليل. والعمران مقصور على البقاع التي يستنبط منها البترول. ولكن أريزونا ليست كلها صحراء، فقد دخل سائحنا قبل المساء إلى الطرف الشرق من الصحراء، وأخذت سيارته تصعد في الجبال — التي يعرفها الناس باسم جبال

روكي — ومضت في صعودها حتى مضى شطر من الليل ، ثم انتهت بعد ذلك إلى هضبة عالية ، كثيرة الغابات والزرع وال عمران .

ولا بد لي هنا أن أقف قليلاً لكي أصف للقارئ كيف يبیت عابر السبيل في رحلة طويلة كالرحلة التي نحن بصدها . فإن سفراً يستغرق سبعة أيام لا بد أن يكون تدير المبيت فيه من أهم الشؤون التي تشغل البال . ليس المبيت المفضل في هذه الحال فندق من الفنادق في إحدى المدن التي تمر بها . بل هنالك مساكن صغيرة أقيمت لمثل هؤلاء السائحين ، ويطلق عليها الناس اسم « موتل » ، وهي كلمة مشتقة من السيارة والفندق بلغة الإنجليز . وقد تسمى « ساحة » أو « فناء » أو « كابينات » . وهي عبارة عن ساحة واسعة تحيط بها أكواخ من الخشب المتين ، وقد أعد كل كوخ لمبيت شخص أو اثنين . وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة . . . وإلى جانب كل كوخ ظلة من الخشب تأوى تحنها السيارة . ومن عادة النازلين في هذه المساكن أن يبكروا قبل شروق الشمس لكي يستأنفوا رحلتهم ؛ ولذلك يجمل بهم أن يدفعوا أجرة المسكن في المساء السابق ، حتى يكونوا أحراراً يستيقظون متى شاءوا ، دون أن يزججوا أصحاب المنزل . وربما كان لهذه السنة الصالحة سبب آخر لا يقل وجاهة . فليس بمستبعد أن بعض النزلاء قد تعريهم المغريات ، فينهضوا في ظلام الليل ، ويمضوا لطبيعتهم مستعجلين ، وبعض العجلة قد ينسيهم دفع ما عليهم من الدولارات . . . صحيح أن رب المنزل قد استكتبهم أسماءهم وأرقام سياراتهم ، ولكن من الجائز أن يخطئ المرء أو يسهو — وجل من لا يسهو — فيعطى اسماً مختلفاً عن اسمه بعض الاختلاف ، ورقماً يختلف عن رقم سيارته بعض الاختلاف . . . من أجل هذا كله كانت عادة الدفع قبل المبيت عادة مستحبة من جميع الوجوه .

ومن مزايا هذه المساكن أنها تقع دائماً وسط الريف . فإذا استيقظ النزلاء كان أول ما تقع عليه عيونهم مناظر الغابات والأنهار والجبال ، أو المروج الخضراء ، والمزارع اليبانة ؛ فجميع ما فيها يبعث على الانتعاش والانشراح . فيستأنف المسافر رحلة بعد رقاد هادئ ساكن ، وقد امتلأ قوة ونشاطاً ، وقد نسي متاعب الأمس ، واتخذ عدته لاستقبال يوم جديد ، وبذل مجهود آخر .

كان الطريق الذي اختاره صاحبنا هو أقصر الطرق من كاليفورنيا إلى نيويورك . وهو الطريق رقم ٦٦ ؛ وقد نظمت الطرق الرئيسية في الولايات

للمتحدة بحيث يمتد كل طريق من أول القطر إلى آخره ، وليس له غير رقم واحد لا يتغير . وما على المسافر إلا أن يلتزم هذا الرقم ولا يجيد ، وهو منقوش بوضوح على صوحي من الحديد لا يخطئها المسافر . . وهذه الأرقام نظام خاص . فالأعداد الفردية منها للطرق التي تتجه من الشمال إلى الجنوب ، والأعداد الزوجية للطرق التي تتجه من الشرق إلى الغرب .

ويخترق الطريق رقم ٦٦ طائفة من الولايات الغربية ، مثل أريزونا ونيومكسيكو وأوكلاهوما ، حيث تعيش جماعات من سكان أمريكا الأصليين الذين اشتهروا باسم « الهنود الحمر » . ولذلك كان من الجائز أن نسميه طريق الهنود . لا يفتأ المسافر يمر ببلدة أو قرية قد انتشروا فيها يعملون ويبيعون ويشترون . بعضهم لا يزال يعيش على فطرته الأولى ، وبعضهم قد امتزج بالبيض وشاركهم في صناعاتهم وأعمالهم . وكثيراً ما يمر المرء بقري هندية تتألف من أكواخ قليلة مبعثرة ، وهي منتشرة في مساحات خصصت للهنود دون غيرهم . وليسوا على كل حال سوى قلة ضئيلة وسط سكان الولاية ؛ فان جميع هنود الولايات المتحدة لا يزيدون كثيراً على نصف مليون من الألف ، ولكنهم اليوم ينعمون في رغد من العيش والأمن ، بعد أن زال عهد الاختلافات والاضطهاد . .

كان أصحابنا يقطعون الطريق في رحلتهم بسرعة تزيد كثيراً على الخمسة والثلاثين ميلاً ، التي فرضتها الدولة على سائقي السيارات محافظة على الإطارات واقتصاداً لها ؛ وكان من حسن الحظ أن لم يتعرض لهم بوليس الطريق إلا في اليوم الرابع من رحلتهم ، وقد تجاوزوا مدينة أنديانا ، والطريق معبد ممهد ، يفرى بالسرعة ولعلمهم زادوا على السبعين ميلاً في الساعة ، وإذا بذلك البوق الذي ألقنا سماعه ، في السماء ، ينفخ فيه بشدة ، وتدرك أصحابنا سيارة البوليس ، فيتمهلون في سيرهم ، ثم يقفون إطاعة لأوامر الدولة ونواهيها .

ويخرج من السيارة فتى صبوح الوجه ، غير طابس ولا باسم . فيقري أصحابنا السلام وينبئهم أنهم مسرعون ، وهو الأمر الذي يعلمونه حق العلم . فيسكت صديقنا المصري ولا ينبس بنت شفة . ويرد رفيقه بأن « هذا السيد على موعد في واشنطن في اليوم السادس من تموز ، وقد تعطلنا في الطريق من أجل الحصول على الإطارات ؛ وأنه لا بد له بعد ذلك أن « يشحن » هذه السيارة إلى مصر ،

قبل أن يغادر نيويورك عائداً إلى وطنه بالطائرة . وقد كان بالأمس عضواً في وفد مصر في مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو .

في هذا الرد البالغ ثلاثة ألفاظ براقه مؤثرة : ميعاد في واشنطن ، العودة إلى مصر ، مؤتمر سان فرانسيسكو . لم يكد الشرطي الكريم أن يستمع هذه الألفاظ حتى أبرقت أساريره ؛ فإن أقصى ما يتمناه أن يجد سبباً وجيهاً يمكنه من أن يطلق سراح أصحابنا ، بعد أن يدون هذه الحقائق الخطيرة في دفتره ، حتى يستطيع أن يفحم بالحجة الدامغة من أراد مؤاخذته على معاملتهم بالرفق واللين . لم يستغرق هذا الأمر كله دقيقة أو دقيقتين ، ثم مضوا في طريقهم على بركة الله . ومن المصادفات الطيبة أن أصحابنا لم يكادوا يقطعون بضعة أميال بعد ذلك حتى انفجرت عجلة من عجلاتهم ، فلحق بهم ذلك الشرطي وساعدهم بما في سيارته من عدة على تغيير إطار باطار ، ثم افترقوا وهم على أمم وفاق وصفاء .



لست في حاجة لأن أسهب في وصف كل مرحلة من هذه السياحة الممتعة ، وحسب القارئ أن يعلم أن من الممكن تقسيمها طبقاً للتقسيم الطبيعي للولايات المتحدة إلى ثلاثة أقسام ، الغربي والأوسط والشرقي . وفي الغرب جبال مترامية الأطراف ، تقطعها السيارة في طرق تنحدر حيناً وتصعد حيناً ؛ وقد تتوسط الجبال الغربية هضاب فسيحة ، كأنها سهول واسعة ، مستوية السطح ؛ ولكن لا تلبث المرتفعات الشاهقة أن تظهر للعيون . ولا يزال الأمر كذلك حتى تدخل المرحلة الثانية وهي السهول الوسطى ذات التربة الخصبة والنبات الغزير ، والسكان الذين يرجع كثير منهم إلى أصل جرمانى . وفي هذا السهل الفسيح ترى الطرق معبدة سهلة ، والأنهار واسعة ضخمة . وقد عبرت السيارة نهر مسورى الشهير إلى جوار مدينة سان لويس . ويذكرنا هذا الاسم بالنفوذ الفرنسي الذي دخل القارة الأمريكية متتبعاً طريق نهر المسيسيبي ، ولكن آثاره فيما عدا ذلك قليلة جداً . ولم يكن نهر مسورى في ذلك الموضع ذا منظر شائق جذاب ؛ فقد أحدثت به المصانع والمداخن ، وشوهت شواطئه المعامل ، وعقد الدخان فوقه غطاءً كثيفاً ، وأزالت حسنه تلك الدور المزدهمة ذات المنظر الديميم . وهكذا يمضى المسافر في سهل أمريكا الأوسط حتى يبلغ الولايات الشرقية ،

من المحيط الى المحيط

فتصادفه الجبال مرة أخرى ، ولا يزال منطلقاً في مسالكها الوعرة وطرقها الملتوية ، وسط المناظر الخلابة الساحرة ، حتى يبلغ الشاطئ الشرقى ، ويصل إلى واشنطن ونيويورك . وهذا الإقليم الشرقى ، سهلاً كان أو جبلاً ، هو موطن المهاجرين الأول . وأكثر سكانه من أصل بريطاني صميم ، ما عدا مدينة نيويورك ، التي لا تنتمي لصبغة واحدة أو أصل قائم بذاته ؛ ففيها من اليهود مليونان أو ثلاثة ، ومن الإيطاليين والصقالية عدد كبير ، ومن الزوج مئات الآلاف . وفيها غير ذلك خليط من الناس والأجناس . وليس في العالم مدينة كنيويورك ينتمي سكانها إلى أصول متعددة متنوعة . ومن الناس من يكتفى من أمريكا بزيارة هذه المدينة المختلطة ، تبهرهم شوارعها الطويلة ، وسماراتها الشاهقة ، وفنادقها الفخمة ، ولياليها الصاخبة ، فيعودون وفي رءوسهم عن أمريكا صورة بعيدة عن الحقيقة كل البعد

ليس من شك في أن نيويورك مدينة عظيمة ، ومجال هائل للنشاط البشرى في مختلف نواحيه . وقد استطاع سكانها أن يعملوا متعاونين على الرغم من تشعبهم واختلافهم . وفي هذا مظهر رائع لذلك النظام الأمريكي الذي وصفناه في صدر هذا المقال . ولكن نيويورك على هذا ، ليست صورة مصغرة للولايات المتحدة ، وليست طامسة لها إلا من الناحية التجارية فحسب . وإنما هي عالم صغير قائم بنفسه ، له خصائصه التي تميزه عن كل شيء سواه . وأكبر الظن أنه ليس في الولايات المتحدة كلها مدينة تستطيع أن تقول عنها إنها تمثل الولايات المتحدة ، أو تمثل الحياة الأمريكية . ولكن هنالك مدن مثل بوسطن وفيلادلفيا وتشيكاجو نستطيع أن نصفها بأنها تمثل الروح التي تسود إقليبا من الأقاليم . أما نيويورك فإننا لا نقدر أن ننتعها حتى بهذا النعت ؛ فحسبها أنها تمثل نفسها ، وتتكشف عن طابعها الخاص .



والآن وقد أبلغتنا مطيتنا ساحل المحيط الأطلسي فاننا لم نذبجها ولم تقل لها إشرق بدم الوتين كما كان يقول الشعراء ، بل بادرتنا بفلسها وتطهيرها ، وأودعناها سفينة تحملها إلى الديار المصرية العزيزة .
ومكثنا على شاطئ المحيط الأطلسي أياماً ، ننتظر الطائرة التي أفلتتنا إلى أرض

من المحيط الى المحيط

الوطن . وليس في مظهر هذا المحيط ما يجعله مختلفاً عن صاحبه الغربي . ولكن الخيال البشرى كان يولد في النفس شعوراً مختلفاً في كل من الحالين . فلقد كان المحيط الهادى رهيباً غريباً ، لأنه ليس منا ولسنا منه . وهو يتجه غرباً إلى الشرق الأقصى . أما المحيط الأطلسي ، فهو محيطنا أو لنا فيه نصيب كبير . والبحر المتوسط شعبة منه ، أو جزء منه . بل نحن لا ندرى أيهما الأصل وأيهما الفرع . ولعل الاصدق أن نقول إن المحيط الأطلسي هو وليد البحر المتوسط ، فهو الذي كشف عنه الغطاء ، وأظهره للعالم وللحضارة . وشعوب البحر المتوسط هي التي وضعت أسس المدنية وال عمران ، التي كان من آثارها اجتياز المحيط الأطلسي ، وتعمير القارة الأمريكية .

وسواء أكان المحيط الأطلسي ابناً أو أباً لبحرنا ، فإنه على كل حال قوى الصلة بنا ، قريب من قلوبنا وعقولنا . فلم نكد نلمس سواحله حتى أحسنا بأننا من وطننا قاب قوسين أو أدنى ، وأخذنا نسمع في خرير أمواجه أصوات عالمنا القديم ، الذي نشتاقي إليه ونزى أنه — على ما به من نقص — هو أطيّب بقاع العالم طراً ، وأخفها ظلاً ، وأعذبها ماء ، وأصفها هواء . ولم نلبث أن طرنا إليه على طائرة قوية من الصلب والحديد ، وفي القلوب طائرات من الشوق والحنين ، أكثر مضاءً وأقوى جناحاً .

محمد عرض محمد